النبي الأعظم صلى الله عليه وآله

في نصوص نهج البلاغة

□ الشيخ عصري الباني / الشيخ علي محسن

ليس لأحدٍ الحقّ في الكتابة عن أيّ موضوعٍ كان، ولا الخوْض في تفاصيله وحيثيّاته، إلاّ بعد أنْ يكون له معرفةٌ واطّلاعٌ، إلى حدٍّ مقبول، على هذه التفاصيل والحيثيّات، فهذا الاطّلاع هو الذي يُخَوّله ويؤهّله للحديث والكلام والنّقاش والأخذ والرّدّ؛ وفي غير هذه الحالة، فالكلام والنّقاش كلّه ترّهاتٌ لا تتجاوز حدّ الظّنّ والجهْل، وهو مذمومٌ وقبيحٌ ومنْهيٌّ عنه عقْلاً وشرْعاً.

وهذا ـ أعني: الاطّلاع والمعرفة قبل الكلام والنّقاش والكتابة ـ مسؤوليّةٌ عظْمى وواجبٌ مقدَّسٌ مُلْقىً على عاتق كلّ مَنْ أراد الولوج إلى أبواب العلْم، أو شاء أنْ يكون له موطئ قدمٍ في صرْحه العالي.. وهو واجبٌ إنسانيٌّ، قبل أنْ يكون واجباً شرْعيّاً..

وتشتدّ هذا المسؤوليّة ويتأكّد وجوبها، كلّما ازداد الموضوع المبحوث عنه أهمّيّةً وحساسيّةً وخطورةً..

ولا شكّ أنّ من أخطر المواضيع وأدقّها وأعظمها أهمّيّةً وحساسيّةً، المواضيع التي يكون الحديث فيها عن تاريخ العظماء والشخصيّات التي كان لها أثرها على التاريخ الإنسانيّ، وسيرتهم، وترجمة حياتهم، وذلك لِما تحتاج إليه هذه المواضيع من بذل الجُهْد في التتبّع والاستقصاء، في محاولةٍ للوصول إلى إحاطةٍ تامّةٍ أو تكاد، بأبعاد حياة المترجَم له الشّخْصيّة والاجتماعيّة، وللتعرّف على آرائه ومفاهيمه ومُعْتقداته، في شتّى المجالات الفكْريّة والحياتيّة والدّينيّة، وعلى أهدافه ورؤاه والطّموحات التي كانت لديه، والأساليب التي كان يتّبعها لتحقيق ونيْل هذه الأهداف والطّموحات.

وفي هذا السّياق أيضاً، فالمسؤوليّة تشتدّ وتزداد وتتضاعف، كلّما ارتقتْ شخْصيّة المترجَم له وعلَتْ مكانتها وازدادتْ عظمتها، ولا سيّما إذا كانتْ فاعلةً ومؤثّرةً في حضارة البشر بشكْلٍ عامّ، دون اختصاصٍ بزمانٍ أو مكانٍ أو لغةٍ أو عرْقٍ أو...

وهذا النّوْع من الاطّلاع والمعرفة والتتبّع والفهم الدّقيق، لئنْ كان متوفّراً في ترجمة أيّ عظيمٍ من العظماء، إلاّ أنّه مفقودٌ البتّة عندما نحاول التحدُّث أو الكتابة عن شخص النّبيّ الأعظمﷺ، الذي هو النّموذج الإنسانيّ الذي يريده الله تعالى على هذه الأرض، وأعظم شخصيّةٍ عرفها الوجود على الإطْلاق، الأسوة، والقدوة الحسنة، والقائد، وأكمل النّاس، وأعقلهم، وأشرف الأنبياء، وسيّد البشر..

ولّما كانت العادة المُتبعة لدى مؤلّفي السّير والتراجم عند محاولتهم للتعرّف على الشّخْصيّة التي هم بصدد ترجمتها، والإحاطة بأبعادها، هي اللّجوء إلى الأشخاص الذين عاصروا هذه الشّخْصيّة وعاشروها وعرفوها، أو العظماء والأعلام الذين تحدّثوا عنها، وفهموا أهدافها ومراميها، وعرفوا أسلوبها وطريقة معالجتها وفهْمها للأمور، فقد كان لا بدّ لنا أنْ نفتّش عمّنْ يَعْرف

النّبيّ ﷺ، ويُدْرك كُنْهه، ويَفْهم حقيقة دينه وتعاليمه، ويُحيط بأبعاد شخصيّته..

وعلى الرّغْم من أنّه قد كُتِبَ وقيل الكثير الكثيرِ عنه ﷺ، عن حياته وعظمته وشخْصيّته المباركة ودينه وتعاليمه وقرآنه، إلاّ أنّنا كنّا، ولا نزال، نجد أنفسنا مُلْزَمين ومُضْطرّين إلى التغافل عن كثيرٍ ممّا قيل، وإلى التمييز بين هذه الأقوال والكلمات وغربلتها وتنقيتها، لانتقاء الأفضل والأدقّ، والأقرب إلى الصّواب منها؛ فلمْ نجدْ سبيلاً للتعرّف عليه، ووفْقاً للحديث القائل: «**يا عليّ، ما عرف الله إلاّ أنا وأنت، ولا عرفني إلاّ الله وأنت، ولا عرفك إلاّ الله وأنا**»(1)، إلاّ اللّجوء، أوّلاً وقبل أيّ كلامٍ آخر، إلى القرآن الكريم، خزانة الوحي، والكتاب الذي جاء به النبيّ ﷺ، وحاوي شريعته، ودستور أمّته، ومعجزته السّماويّة الخالدة، لنستنير بآياته ونستنطقها، وهي مهمّةٌ ليستْ بالسّهْلة، فإنَّ القرآن الكريم، هو أيضاً، كتابٌ عظيمٌ لا يمسّه إلاّ العظماء المطهَّرون، فاحتجْنا إلى مَنْ يَنْطق بالقرآن، ويَفْقه معانيه، ويَسْبر أغواره، ولنْ نجد ناطقاً بالقرآن خيراً من القرآن النّاطق، من عليٍّ عليه السلام، وهو الملاصق للنّبيّ ﷺ منذ طفولته، والتابع له كالفصيل يَتْبع أثر أمّه..

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

فلذلك سنتعرّض هنا لمباحث من سيرة النّبيّ الأعظم ﷺ التي جاءت في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، والتي جمعها عنه الشّريف الرّضيّ رحمه الله في نهج البلاغة.

المبحث الأوّل: نسبه الشّريف ﷺ

ليست الأنساب والانتماءات العائليّة والأُسَريّة، أساساً للعظمة، ولا معياراً للتّفاضل، ولا سبباً للتّكامل، ولكنّها دون شكٍّ إحدى العناصر الدّخيلة في تكوين شخصيّة الإنسان وملامحها، كما ينصّ على ذلك علماء التربية والاجتماع، فالإنسان ابن بيئته، والبيئة الأُولى له، والأكثر التصاقاً به، هي أُسْرته التي احتضنته وتولّد منها، وعاش بينها؛ مضافاً إلى النّصوص الإسلاميّة التي دلّتْ

على مدى تأثير طهارة المولد، والعناصر الوراثيّة على الشّخْصيّة ومؤهّلاتها، ومدى الدّوْر الذي تَلْعبه في تحديد مصيرها..

والنّبيّ ﷺ، لمّا كان أكمل النّاس، وسيّد الخلْق، فقد كان لا بدّ للعناية الإلهيّة أنْ تلعب دوْرها لتجْعله ينتمي إلى أكرم نسبٍ، وأشرف محتد؛ قال عليه السلام:

«حتّى أفْضَتْ كرامة الله سبحانه إلى محمّدٍ صلّى الله عليه وآله، فأخْرجَه منْ أفضل المعادن منبتاً، وأعزّ الأرومات[٢] مغرساً، من الشّجرة التي صدع[٣] منها أنبياءه، وانتخب منها أمناءه، عترته[٤] خير العتر، وأُسْرته[٥] خير الأُسَر، وشجرته خير الشّجر، نبتتْ في حرم، وبسقتْ[٦] في كَرَم، لها فروعٌ طوال، وثمرةٌ لا تنال، فهو إمام مَن اتّقى، وبصيرة مَن اهتدى، سراجٌ[٧] لمع ضَوْؤه، وشهابٌ[٨] سَطَع نوره، وزنْدٌ[٩] بَرَق لمْعُه»[١٠].

فدلّ على أنّ نسبه الشّريف هو سلسلة الأنبياء العظام عليهم السلام، فيَسْتحقّ أنْ يُنْسَب إلى النّبوّة، ذلك المنصب العظيم الذي لا يُلَقّاه إلاّ ذو حظٍّ عظيم، وكنّى عنها ـ أي: النّبوّة ـ بكرامة الله، وأنّه ﷺ وذرّيّته عليهم السلام هم آل إبراهيم عليه السلام وذرّيّته، وأنّ آباءه كانوا متمسّكين بالحنيفيّة مُسْلمين لله، فكانوا سادةً لقومهم، وأشراف الأمم على مرّ العصور وكرّ الأيّام والدّهور؛ فإرْثه الذي وَصَل إليه ﷺ من آبائه عليهم السلام ليس إرْثاً مادّيّاً زائلاً وفانياً، بل إنّما هو إرْث النّبوّة والكرامة، بما تتضمّنه النّبوّة من معاني الاقتداء، والتّأسّي، ومضامين العلْم، والأخلاق السّامية الكريمة، التي استعار لها لفْظ: الشّجرة التي لها فروعٌ طوالٌ تارةً، للدّلالة على عموم الانتفاع بها، ولفْظ: ثمرةٌ لا تُنال تارةً أُخْرى، للدّلالة على عظم هذا الإرْث الواصل، وتناهي قُدْرة المخْلوقين عن البلوغ إليها، إلاّ مَنْ شاء الله...

المبحث الثاني: صفاته الخُلُقيّة ﷺ

لمّا كانت النّبوّة أجْلى مظاهر القيادة، وأرقى أشكالها، كيف لا؟! وهي من

أعظم المناصب الإلهيّة التي وهبها الله تعالى للخَلْق كافّة، لا لشخْصٍ دون آخر، ولا لقوْمٍ دون قوْم، ولا للُغةٍ دون لغة، فهي لطْف الله تعالى، الذي لمْ يَسْمح كرمه بأنْ يترك النّاس بلا دليلٍ يدلّهم، ولا مُرْشدٍ يَهْديهم ويأْخذ بيدهم؛ ولمّا كان أبرز عُنْصرٍ، وأهمّ رُكْنٍ تتقوَّم به النّبوّة هو رُكْن التأسّي والاقتداء الحَسَن، كان لا بدّ للّنبيّ، أيّ نبيٍّ كان، أنْ يكون متوفّراً على شرائط الاقتداء وعوامله؛ وأهمّ عوامله هي الأخلاق الكريمة السّمحة؛ ولمّا كان النّبيّ ﷺ خاتم النّبيّين وأفْضلهم وسيّدهم، كان لا بدّ أنْ تكون أخْلاقه أفضل الأخلاق، وسجاياه أكرم السّجايا، وإلاّ لمْ يجزْ تقديمه على غيره عقْلاً، لقُبْح تقديم المفضول على الفاضل، وترجيح المرجوح على الرّاجح. لذلك كلّه يقول فيه أمير المؤمنين وسيّد المتّقين عليٌّ عليه السلام:

«حتّى بعث الله محمّداً صلّى الله عليه وآله شهيداً وبشيراً ونذيراً، خير البريّة طفْلاً، وأنْجبها كهْلاً[(١١)]، أطْهَر المطهَّرين شيمةً[(١٢)]، وأجْود المستمْطَرين ديمةً[(١٣)]»[(١٤)].

فبيّن أنّه ﷺ كان قُدْوةً للنّاس منذ طفولته ونعومة أظفاره، فهو ﷺ خير النّاس وأفْضلهم، وهو الإنسان الكامل الذي يُريده الله تعالى نموذجاً لأرقى المنازل التي يُمْكن أنْ تطأها قدم بشرٍ، بل قدم مخلوقٍ في هذا الوجود، وهو ﷺ يُشَكّل هذا النّموذج في جميع مراحل العمر وسنيّ الحياة، فهو بين الأطفال خير طفْلٍ، وبين الكهول أنْجب كَهْلٍ، وأحْصفهم رأياً، وأكثرهم هيبةً ووقاراً واحتراماً..

كيف لا؟ وهو ﷺ المشروع والمُخَطَّط الإلهيّ الأعظم لبني البشر، والذي كان مُفْترق طريقٍ للبشريّة جمْعاء، بَعْد فتْرةٍ من الرّسل وانقطاع، والدّليل على أنّه ﷺ مخطّط اللّطيف الخبير لهداية البشر وقيادتهم نحو كمالهم وما فيه سعادتهم ونجاتهم، ما قاله عليٌّ عليه السلام في الخطبة التي حدّث فيها عن اتّباعه للنّبيّ ﷺ،

والتصاقه به:

«ولقد قرن الله به صلّى الله عليه وآله، منْ لدُنْ أنْ كان فطيماً، أعظم مَلَكٍ منْ ملائكته، يَسْلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليْله ونهاره»[١٥].

فهو لشدّة اعتنائه بهذا المشروع، قيّض للنّبيّ ﷺ أعظم مَلَكٍ من ملائكته؛ ليسْهر على تعليمه، ويواظب على تزكيته وتربيته، ليكون عمله الأكمل، وخُلُقه الأحسن.

وعلى ضوء ذلك نقول: إنّ مَنْ نَسَبَ إلى النّبيّ ﷺ بعض الأفعال أو الأقوال غير اللاّئقة، فهو حتْماً لمْ يُدْرك عظمة مقام النّبوّة، ورفْعة منزلتها، وشدّة اعتناء الباري تعالى بها.

ومن جُمْلة الخطوط العامّة لسيرته الخُلُقيّة ﷺ:

أ) العدْل في الحُكْم والمعاملة:

وهو ما عبّر عنه في النّهج الشريف بقوْله:

«سيرته القصْد، وسنّته الرّشْد، وكلامه الفصْل، وحُكْمه العدْل»[١٦].

نعم، فالعدْل أساس المُلْك، وركْن الدّوْلة، الذي يُمَيّز الدّوْلة الإلهيّة عن الدّوْلة الظّالمة، والذي يُمَيّز حُكْم الله عن حُكْم الطّاغوت وأهل الجوْر، وهذا ما يَدْخل في الخُلُق والرّشْد الاجتماعيّ، مراعياً القصْد وسالكاً طريق الوسطيّة بين خطّي الانحراف، أعني: الإفراط والتفريط.

ب) الزّهْد والتواضع:

فلقد كان ضروريّاً لَمنْ يريد أنْ يتحمّل أعباء مقام النّبوّة والخلافة الإلهيّة، ولمنْ أُريدَ له أنْ يكون القدْوة البشريّة، والأُسْوة الحسنة أنْ يكون مترفّعاً عن الدّنْيا وأقذارها، وأنْ يتجنّب أوضارها وسمومها، وأنْ لا يَغْرق في مُسْتنقعاتها وأوحالها، أي: أنْ لا يَخْلد إلى الأرض ويتّبع هواه؛ فالإنسان الذي يريد أنْ يكون شهيداً على النّاس وأفعالهم، ومُنْذراً النّاس بالعقاب والعذاب والخزي المترتّب

على نسْيان ذكْر الله، ومبشّراً للمؤمنين بالثّواب الجزيل الذي أُعِدَّ لهم مكافأةً على تضحياتهم وتديّنهم وتسليمهم لأمره تعالى، الإنسان الذي يُريد القيام بهذه المهام الثلاث: الشهادة والإنذار والبشارة، سوف لنْ يَسْتطيع القيام بها على أكمل وجْه، ما دام مُنْغمساً في لذّات الدّنْيا وشهواتها، ومنقاداً لرياح أهوائها..

وهذا ما عبّر عنه إمام الزّاهدين، تلميذ النّبيّ ﷺ، عليٌّ عليه السلام بقوْله:

«فأعْرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكْرها من نفسه، وأحبَّ أنْ تغيب زينتها عن عينه، لكيْلا يتّخذ منها رياشاً[١٧]، ولا يعتقدها قراراً، ولا يرجو فيها مقاماً، فأخْرجها من النّفْس، وأشْخَصَها عن القلب، وغيَّبها عن البصر؛ وكذا مَنْ أبْغَضَ شيئاً أبْغَض أنْ يَنْظر إليه، وأنْ يُذْكَر عنده، ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله، ما يدلّك على مساوئ الدّنْيا وعيوبها، إذْ جاع فيها مع خاصّته، وزُوِيَتْ[١٨] عنه زخارفها، مع عظيم زُلْفته؛ فليَنْظر ناظرٌ بعقْله: أكرَّم الله محمّداً بذلك أم أهانه؟ فإنْ قال أهانه: فقد كذّب، والعظيم، وإنْ قال أكْرَمَه: فليعلمْ أنّ الله قد أهان غيره حيث بَسَط الدّنْيا له، وزَواها عن أقْرب النّاس منه، فتأسّى متأسٌّ بنبيّه، واقتصّ أثره، وولج مولجه»[١٩].

نعم، فالدّنْيا لا تَعْدل عند الله جناح بعوضة، ولذلك كثيراً ما افتقر المؤمن، بل جلّ أنبياء الله العظام وأوليائه الكرام، من الفقراء، فكأنّ الفقر والحرمان من الدّنْيا سرٌّ مكنونٌ، وفي المقابل: كثيراً ما فتحت الدّنْيا مصاريع أبوابها للكافر والشّقيّ.

ج) التذلّل لله والتواضع للعبد:

والنّبيّ ﷺ كان يرى الدّنْيا بمنظرها الواقعيّ، وقد انكشفتْ أمام بصيرته الثّاقبة صورتها الحقيقيّة، فتعامل معها معاملة كارهٍ مُبْغضٍ لها، فكان يَزْويها من أمام ناظريْه، ويُقْصيها عن فكْره واهتماماته، فما بالى بغدْرها وفجورها، ولا هاله ما رآه من ويلاتها ونكباتها، ولا أغراه ما يُغْري الجاهل السّفيه من ظواهرها ولذّاتها الفانية؛ والنّتيجة الحتْميّة والتلقائيّة لهذه النّظْرة المترفّعة عن الدّنْيا، أدّتْ

به إلى أنْ يكون ترابيّاً، حَسَن العشْرة، بين الفقراء أحدهم، وبين الأغنياء متكبّراً عليهم، مصانعاً وجْهاً واحداً، وجْه الغنيّ الذي لا يَفْتقر، فكان كلّما تواضع وتنازل ازداد رفْعةً وعلوّاً، فمَنْ تواضع لله رفعه الله..

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«ولقد كان صلّى الله عليه وآله يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويَخْصف بيده نعْلَه، ويُرَقّع بيده ثوْبَه، ويَرْكب الحمار العاري، ويُرْدف خَلْفه، ويكون السّتْر على باب بيته، فتكون فيه التصاوير، فيقول: يا فلانة ـ لإحدى أزواجه ـ غيّبيه عنّي، فإنّي إذا نظرْتُ إليه ذكرْتُ الدّنْيا وزخارفها»[٢٠].

د) الشّجاعة:

فليس النّبيّ صلى الله عليه وآله بالقائد الذي يَسْتتر خلْف جنوده وقوّاته، ولا بالذي لا يتجاوز الخطوط الخلْفيّة لجبهات القتال، وليس دوْره في تحصين الثّغور، وحفْظ بيضة الإسلام بمنحصرٍ في التخطيط والتنظير، بل هو في الحرْب فارس الميدان، وحامي الذّمار، وسيف الله، هو القائد الذي يَحْتمي به الجنود، فيحميهم، ويُشجّعهم، ويحرّضهم، ويقتحم بهم.. شجاعاً مغواراً لا يُشَقّ له في الحرب غبار، ولا يقرّ له قرار..

وهذا سيّد الشّجْعان، ومجندل الأبطال يَشْهد له، ويقول فيه:

«كنّا إذا احْمرّ البأس اتّقَيْنا برسول الله صلّى الله عليه وآله، فلمْ يكنْ منّا أقْرب إلى العدوّ منه»[٢١].

المبحث الثالث: أدلّة نبوّته صلى الله عليه وآله

ليس كلّ مدّعٍ للنّبوّة صادقاً، فالنّبوّة منصبٌ عظيمٌ جليلٌ وخطير، ويترتّب عليْه رفْعةٌ وشرفٌ ومقامٌ وجاهٌ لصاحبه، فادّعاء النّبوّة، هو كنفْس النّبوّة، أمرٌ خطيرٌ جلل، ولذلك كان هذا المنصب محطّاً للأطْماع، فكان لا بدّ من التمييز بين

الدّعْوى الكاذبة والنبوّة الصّادقة، ولا يَنْفع في ذلك، كما ذكر عُلَماء الكلام، إلاّ المُعْجزة[٢٢]، فيكون ظهورها على يدي المدّعي في مقام التحدّي دليلاً على نبوّته وحقّيّة دعواه، وعدم ظهورها في مقام التحدّي دليلاً على كذبه وعدم نبوّته..

وقد ادّعى محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، ذلك الفتى من قُرَيْش، النّبوّة[٢٣]، داعياً النّاس إلى طاعة الله تبارك وتعالى، ومجاهداً في سبيل هذه الدّعْوى الحقّة، قال عليٌّ عليه السلام:

«وأشْهد أنّ محمّداً عبْدُه ورسوله، دعا إلى طاعته، وقاهَرَ أعداءه جهاداً على دينه»[٢٤].

فكان لا بدّ له من معجزةٍ تكون شاهداً على صدْقه، ودليلاً على نبوّته؛ وبحسب كلمات الأمير عليه السلام في النّهْج الشريف، يمكننا أنْ نُصَنّف المعجزات التي ظهرتْ على يديْه إلى صنْفيْن:

١) المعجزة الخالدة

وهي القرآن الكريم، الكتاب العظيم، الذي رفع الهداية رايةً له ولواءً، وأخذ على عاتقه مهمّة محاربة الأوبئة الخُلُقيّة والأمراض الاجتماعيّة التي إنْ تفشّتْ في المُجْتمع، تطال الجميع، وتُهْلك الجميع، وفي الدّنْيا قبل الآخرة. ومنشأ الحاجة إلى مُعْجزةٍ خالدة، غير آنيّة، أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله بشرٌ، وأنّه صلى الله عليه وآله واحدٌ من النّاس، والبشر مخلوقٌ فانٍ، ومصيره إلى الموْت والزّوال، فالنّبيّ صلى الله عليه وآله ميّتٌ كما همْ ميّتون، ولكنّ عقيدتنا: أنّ نبوّته صلى الله عليه وآله هي النّبوّة الخاتمة، هي النّبوّة التي تجْمع فيها عُصارة نبوّات الأنبياء والرّسل، فهي النّبوّة الخالدة، التي أُريدَ لها أنْ تستمرّ وتبقى انعكاساً للُطْف الله على خلْقه إلى يوم القيامة، فكان لا بدّ لتعاليمها أنْ تبقى وتستمرّ إلى يوم القيامة.

وكان لا بدّ لشُعْلتها أنْ تبقى وهّاجةً متوقّدة، كان لا بدّ أنْ تبقى نابضةً

بالحياة، فجاء القُرْآن الكريم، ليُحَقّق هذا الخلود، ليبقى بين ظهراني الأمّة، ليراه إنسان الأمس وإنسان اليوم وإنسان الغد.. وفي هذا المضمون يقول عليٌّ عليه السلام:

«فقبضه إليه كريماً، صلى الله عليه وآله، وخلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أممها، إذْ لمْ يتركوهم هَملاً[٢٥] بغير طريقٍ واضح، ولا عَلَمٍ قائم، كتاب ربّكم فيكم، مبيّناً حلاله وحرامه، وفرائضه وفضائله، وناسخه ومنسوخه»[٢٦].

والإعجاز في هذا الكتاب العظيم، لا يقتصر على جهة بقائه وخلوده، بل ثمّة جهاتٌ كثيرةٌ متعدّدة، لا يُدْركها إلاّ العالِمُ الخبير، وهنا نَسْتمع إلى كلام عليٍّ عليه السلام، النّاطق عن القرآن، والمُفْصح عن وجوه إعجازه وكيفيّة الانتفاع به، يقول عليه السلام:

«والله سبحانه يقول: (ما فرّطْنا في الكتاب من شيء)، فيه تبْيانٌ كلّ شيء، وذكر أنّ الكتاب يُصَدّق بَعْضه بَعْضاً، وأنّه لا اختلاف فيه، فقال سبحانه: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً)، وإنّ القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تَفْنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تُكْشَف الظّلمات إلاّ به»[٢٧].

فقد بيّن عليه السلام: أنّ إعجازه خالدٌ متجدّد، وعجائبه لا تَفْنى ولا تَنْفد، فالقرآن مُواكبٌ لتطوّر فهْم البشر وإدراكهم، بل متقدّمٌ عليهم دائماً، فكلّما ازداد البشر تقدّماً وحضارةً وعلْماً، كلّما اقتربوا من القُرْآن واكتشفوا بعضاً من أسراره؛ فباطنه عميقٌ عميق، وعُمْقه هذا صِيغَ في قالبٍ فنّيٍّ وبلاغيٍّ مُعْجز.

روى ابن بابويْه: أنّ رجلاً سأل الصّادق عليه السلام: ما بال القرآن لا يَزْداد عند النّشْر والدّرْس إلاّ غضاضةً؟ فقال: إنّ الله تعالى لمْ يَجْعلْه لزمانٍ دون زمان، ولا لناسٍ دون ناس، فهو في كلّ زمانٍ جديد، وعند كلّ قوْمٍ غضٌّ إلى يوم القيامة[٢٨].

وحتّى أعداء القرآن الكريم وأعداء الإسلام ونبيّه صلى الله عليه وآله، لمْ يتمكّنوا، رغم عتوّهم وغيّهم وضلالهم، اعترفوا بإعجازه، فهذا الوليد بن المغيرة يقول ـ بعد أنْ سمع من النّبيّ صلى الله عليه وآله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى

وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[٢٩] ـ : «**والله إنّ له لحلاوةً، وإنّ عليه لطلاوةً، وإنّ أعْلاه لَمُثْمر، وإنّ أسْفَلَه لَمُغْدق، وما يقول هذا بشر**»[٣٠].

والقرآن الكريم يتّبع أحسن السّبل للهداية، ففيه أحسن الكلام، وأحسن القصص، وفي آياته الشّفاء، ولها أثرٌ على القلوب، كأثر الرّبيع على الطّبيعة؛ قال عليه السلام:

«**فإنّه أحْسَن الحديث، وتفقّهوا فيه، فإنّه ربيع القلوب، واستَشْفوا بنوره، فإنّه شفاء الصّدور، وأَحْسِنوا تلاوته، فإنّه أحْسَن القصص**»[٣١].

والقرآن الكريم هو الثّقْل الأكبر، والعروة الوثْقى التي لا نجاة من الهلكة إلاّ بالتمسّك به، مع عِدْله، الثّقْل الأصغر، كما جاء في حديث الثّقلَيْن[٣٢]، ولذلك كان بيتاً لا تُهْدم أركانه، وعزّاً لا تُهْزم أعوانه، كما قال عليه السلام:

«**وكتاب الله بين أظْهركمْ، ناطقٌ لا يَعْيَى لسانه**[٣٣]**، وبَيْتٌ لا تُهْدَم أرْكانه**[٣٤]**، وعزٌّ لا تُهْزَم أعوانه**»[٣٥].

ونكتفي هنا بهذا القدر ممّا جاء به عليه السلام من علائم ووجوه إعجازه، وهي تحتاج إلى بحثٍ مفصّلٍ مختصٍّ بها.

٢) المعاجز الأُخْرى (الآنيّة)

يُحدّثنا أمير المؤمنين عليه السلام، وهو نفْسه عليه السلام أيضاً أحد معجزات النّبيّ صلى الله عليه وآله، ودلائل نبوّته، يُحدّث عن ظهور عددٍ من المعاجز على يدَيْه المباركتيْن صلى الله عليه وآله، فيقول:

«**ولقد كُنْتُ معه ـ صلّى الله عليه وآله ـ لَمّا أتاه الملأ**[٣٦] **من قريش، فقالوا له: يا محمّد، إنّكَ قد ادّعَيْتَ عظيماً لمْ يَدّعه آباؤك، ولا أحدٌ من بيتك، ونحن نسألك أمراً، إنْ أجبْتَنا إليه وأرَيْتَناه، علِمْنا أنّك نبيّ ورسول، وإنْ لمْ تَفْعلْ، علمْنا أنّك ساحرٌ كذّاب؛ فقال صلّى الله عليه وآله: وما تسألون؟ قالوا: تَدْعو لنا هذه الشّجرة حتّى تَنْقلع بعروقها وتقف بين يديْك، فقال صلّى الله عليه وآله: إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير، فإنْ**

فَعَل الله لكُمْ ذلك، أتُؤْمنون وتَشْهدون بالحقّ؟ قالوا: نعم، قال: فإنّي سأُريكُمْ ما تَطْلبون، وإنّي لأَعْلَم أنّكُمْ لا تَفيئون[٣٧] إلى خيْر، وإنّ فيكُمْ مَنْ يُطْرح في القليب[٣٨]، ومَنْ يُحَزّب الأحزاب؛ ثمّ قال صلّى الله عليه وآله: يا أيّتها الشّجرة، إنْ كُنْتِ تُؤْمنين بالله واليوْم الآخِر، وتَعْلمين أنّي رسول الله، فانْقَلعي بعروقك حتّى تَقِفي بين يدَيّ بإذْن الله؛ فَوَالذي بَعَثَه بالحقّ، لانْقلعَتْ بعُروقها وجاءتْ، ولها دويٌّ شديد، وقَصْفٌ كقصْف أجنحة الطّيْر، حتّى وقَفَتْ بين يَدَي رسول الله صلّى الله عليه وآله مُرَفْرفةً، وأَلْقَتْ بغُصْنها الأَعْلى على رسول الله صلّى الله عليه وآله، وببعْض أغصانها على مِنْكَبي[٣٩]، وكُنْتُ عن يمينه صلّى الله عليه وآله، فلمّا نَظَر القوْم إلى ذلك قالوا ـ علوّاً واستكباراً ـ: فمُرْها: فلْيَأْتك نصْفُها ويَبْقى نصْفها، فأَمَرَها بذلك، فأَقْبَل إليه نصْفها كأَعْجَب إقْبال وأشدّه دويّاً، فكادتْ تلتفّ برسول الله صلّى الله عليه وآله، فقالوا ـ كُفْراً وعتوّاً[٤٠] ـ: فمُرْ هذا النّصْف، فلْيَرْجع إلى نصْفه كما كان، فأَمَره صلّى الله عليه وآله، فرجع. فقُلْتُ أنا: لا إله إلا الله، فإنّي أوّل مُؤْمنٍ بك يا رسول الله، وأوّل مَنْ أقرّ بأنّ الشّجرة فَعَلَتْ ما فَعَلَتْ بأمْر الله تعالى، تَصْديقاً بنبوّتك وإجْلالاً لكلمتك؛ فقال القوْم كلّهم: بل ساحرٌ كذّاب، عجيبُ السّحْر، خفيفٌ فيه، وهل يُصَدّقكَ في أمْرك، إلاّ مثْل هذا، (يعنوني)...»[٤١].

وفي هذا المقطع إشارةٌ إلى معجزاتٍ أربع:

أ. مجيء الشّجرة إليهﷺ.

ب. إخبارهﷺ قبل مجيء الشجرة بعدم تصديقهم إيّاه بعد رؤيتها تجيء إليْه، وقد حدث كما أخبرﷺ.

ج. إخبارهﷺ بمَنْ سيُقْتَل منهم في بدر، ويُطْرَح في بئره، وهو ما حدث فعْلاً بعد ذلك[٤٢].

د. إخبارهﷺ بأنّ فيهم مَنْ سيُحَزّب الأحزاب عليه، وهو أيضاً أمرٌ تحقّق وحصل[٤٣].

المبحث الرابع: سبب بعثته وإرساله ﷺ

النّبوّات التي تقدّمتْ على نبوة نبيّنا الأعظم ﷺ، كانتْ رسالتها، على عظمتها ورفْعة مقامها وعلوّ شأنها، رسالةً ذا طابعٍ مرحليٍّ وآنيٍّ، إذْ كان الملحوظ في جملةٍ من أحكامها وتعاليمها ظروفاً خاصّةً كانتْ تعيشها البشريّة، فكانتْ هذه الأحكام مؤطّرةً بهذه الظّروف الخاصّة، وعلاجاً لها، هو أشبه بالعلاج الموْضعيّ، وليس علاجاً جذْريّاً وأساسيّاً، فلذلك لمْ تكنْ تلك الأحكام لتتمتّع بصفة الخلود، إذْ كان المخاطَب بها نوْعاً معيّناً من المكلّفين، وفي زمانٍ خاصٍّ من بين الأزمنة، وفي مُجْتمعاتٍ تُوصَف بأنّها بدائيّة وجاهليّة..

ولذلك، وبمرور الزّمان، وتبدّل الأوضاع والظّروف، ومع تحضّر البشر، ورقيّ المستوى الإنسانيّ شيئاً ما، بدأتْ الحاجة إلى تغيير هذه الأحكام، وإيجاد الحلول الجذْريّة المناسبة، بالبروز والظّهور، وذلك بعد أنْ بدأتْ مظاهر الفساد والظّلْم والضّلال والفتن وضياع أحكام الدّين بالتفشّي والانتشار في المجتمعات إلى حدٍّ كبير.. فإنّ الأحكام التي تُشَرَّع لأجْل مصالح وقتيّةٍ وآنيّة، تتبدّل بتبدّل الأوقات والأزمان، وتختلف باختلاف المكلّفين.. ولذا سجّل لنا التاريخ، أنّ بعض ما أُحِلَّ لنوحٍ عليه السلام كان قد حُرِّم على مَنْ تقدَّمه، وأوْجَبَ الختان على إبراهيم عليه السلام بعد تأخيره، وحرّم الجمْع بين الأُخْتيْن، وغير ذلك[٤٤]..

وفي هذا الإطار يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«أَرْسَلَه على حين فَتْرة[٤٥] من الرّسل، وطُول هَجْعة[٤٦] من الأمم، واعتزام[٤٧] من الفتن، وانتشار[٤٨] من الأمور، وتَلَظّ[٤٩] من الحروب، والدّنْيا كاسفة[٥٠] النّور، ظاهرة الغرور[٥١]، على حين اصفرارٍ من ورقها، وإياسٍ من ثمرها، واغْورارٍ من مائها، قد دُرِسَتْ منار الهدي، وظَهَرتْ أعلام الرّدي[٥٢]، فهي متجهّمةٌ[٥٣] لأهْلها، عابسةٌ في وجْه طالبها، ثَمَرُها الفتنة، وطعامها الجيفة، وشعارها الخوْف، ودثارها[٥٤] السّيْف»[٥٥].

المبحث الخامس: مَنْ المخاطب بشريعته ﷺ؟

تتميّز شريعة نبيّنا الأعظمﷺ عن سائر الشّرائع والرّسالات السّابقة، لا في خلودها واستمرارها ما استمرّت الدّنْيا، وإلى يوْم القيامة فحسب، بل بطابعها الشّموليّ، ولسانها المتحرّر من قيود اللُّغات أو الأعراق أو الشّعوب أو الأمكنة؛ فالمُخاطَب بتكاليفها وأحكامها وفروعها ومسائلها هم النّاس كافّةً، وأهل الأرض بل أهل الدّنْيا قاطبةً.. من دون اختصاصٍ ببني هاشم، ولا بقريش، ولا بالعرب، بل هوﷺ بشيرٌ ونذيرٌ لكلّ النّاس.. ورسالته رسالة التوحيد والوحدة والألْفة.. قال عليه السلام:

«إلى أنْ بَعَثَ الله سبحانه محمّداً رسول الله صلّى الله عليه وآله لإِنْجاز عِدَته، وتمام نبوّته، مأخوذاً على النّبيّين ميثاقه، مشهورةً سِماته، كريماً ميلاده، وأهل الأرض يومئذٍ مللٌ متفرّقة، وأهواءٌ مُنْتشرة، وطوائف متشتّتة، بين مشبّهٍ لله بخلْقه أو مُلْحدٍ في اسْمه أو مُشيرٍ إلى غيره، فهداهم به من الضّلالة، وأنْقذهم بمكانه من الجهالة»[٥٦].

فهو يُخاطب كلّ أهل الأرض، وأصحاب الملل والأهواء، وجميع الطّوائف، على تشتّتها..

وفي موْضعٍ آخر، يقول عليه السلام:

«وأشهد أنّ محمّداً عَبْده ورسوله، أرْسَلَه بالدّين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنّور السّاطع، والضّياء اللاّمع، والأمر الصّادع، إزاحةً للشّبهات، واحتجاجاً بالبيّنات، وتحذيراً بالآيات، وتخْويفاً بالمثلات، والنّاس في فتنٍ انْجَذَمَ[٥٧] فيها حبْل الدّين، وتَزَعْزَعَتْ سَوارى[٥٨] اليقين، واختلف النّجْر[٥٩]، وتشتّت الأمْر»[٦٠].

فبيّنَ عليه السلام أنّ النّاس جميعاً مدْعوّون إلى نبْذ الفتن والخلافات، والإصغاء إلى نداء العقْل والقلْب، اللّذان يَلْهج بهما الخطاب القرآنيّ، والسّنّة النّبويّة..

وفي مقامٍ آخر، يُشير أمير المؤمنينعليه السلام إلى أنّ المخاطَب هم أهل الدّنْيا قاطبةً، فيقول:

«أَرْسَلَه على حين فَتْرةٍ من الرّسل، وطُول هَجْعةٍ من الأمم، واعتزامٍ من الفتن، وانتشارٍ من الأمور، وتَلَظٍّ من الحروب، والدّنْيا كاسفة النّور، ظاهرة الغرور، على حين اصفرارٍ من ورقها، وإياسٍ من ثمرها، واغْورارٍ من مائها، قد دُرِسَتْ منار الهدي، وظَهَرتْ أعلام الرّدي، فهي متجهّمةٌ لأهْلها، عابسةٌ في وجْه طالبها، ثَمَرُها الفتنة، وطعامها الجيفة، وشعارها الخوْف، ودثارها السّيْف»[٦١].

المبحث السّادس: مسؤوليّاته الرّساليّة صلى الله عليه وآله

يُحَدّد أمير المؤمنينعليه السلام ثلاث مهمّاتٍ ومسؤوليّاتٍ جسامٍ مُلْقاةٍ على عاتق النّبيّ صلى الله عليه وآله:

أ) البلاغ

وهي المهمّة التي عبّر عنها الله تبارك وتعالى بقوْله: ﴿يَتْلُوعَلَيْهِمْ آيَاتِه﴾[٦٢]، بل جَعَلها مهمّته الوحيدة والمُنْحصرة عندما قال: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾[٦٣]، وقال أمير المؤمنينعليه السلام:

«بلّغ رسالات ربّه، فلمَّ الله به الصّدْع[٦٤]، ورَتَق به الفتْق[٦٥]، وألَّف به ذوى الأرحام بعد العداوة الواغرة[٦٦] في الصّدور، والضّغائن[٦٧] القادحة[٦٨] في القلوب»[٦٩].

وقال في موْضعٍ آخر:

«أَرْسَلَه داعياً إلى الحقّ، وشاهداً على الخلْق، فبلّغ رسالات ربّه غير وانٍ ولا مقصّر، وجاهَدَ في الله أعداءه غير واهن ولا معذّر، إمام مَنْ اتّقى، وبَصَر مَنْ اهتدي»[٧٠].

هذه المهمّة الشّاقّة والهامّة، وظيفةٌ إلهيّةٌ وتكليفٌ مقدّسٌ، وعلى الإنسان المكلَّف بها أنْ يأتي بها انطلاقاً من كوْنها واجباً إلهيّاً بصرْف النّظر عن مدى استجابة النّاس للبلاغ وامتثالهم، فلا يصحّ أنْ يَلوم المبلّغ نفْسه ويقرّعها لمجرّد

عدم أو بطْء الاستجابة لبلاغه، ولا يَنْبغي له أنْ يَقيس جسامة وخطورة وظيفة البلاغ ومسؤوليّة القيام به بالنّتائج المادّيّة الملموسة والمحسوسة..

وقد جاء هذا المعنى واضحاً في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[71].. فقد جاءتْ الإشارة فيها إلى أنّ النّبيّ ﷺ، لسعة رحْمته، وشدّة رأفته بأمّته، كأنّه كان يتأذّى عندما يرى إمعانهم في الغيّ والضّلال.. ولكنّه مع ذلك، كما في الفقرة السّابقة، لمْ يتوانَ لحْظةً عن التضلُّع بمسؤوليّته، والقيام بتكليفه ومهمّته، فكان حجّة الله على خلْقه، الحجّة التي يَنْقطع معها لجميع الخلْق كلّ عُذْرٍ..

وقد تأسّى عليٌّ عليه السلام بالنّبيّ الأعظم ﷺ، في تحمّل أعباء البلاغ والإرشاد، وفي الوقوف بوجْه المحن كافّةً، على شدّتها وصعوبتها، وفي الإصْرار على إتمام نور الله في أرْضه، ورفْض كلّ محاولات الإجهاض والإفْساد والفتن.. فقاتل في سبيل ذلك النّاكثين والقاسطين والمارقين.. فقتاله عليه السلام كقتال النّبيّ ﷺ، دونما فرْقٍ أو اختلاف، إلاّ في مسألةٍ واحدة، وهي: أنّ قتال النّبيّ ﷺ كان قتالاً على التنزيل، وأمّا عليٌّ عليه السلام فقتاله قتالٌ على التأويل.. فالاسْم هو المُخْتلف، وإلاّ، فالغاية واحدةٌ مُنْحصرة لا ثاني لها، وهي: حفْظ الدّين، ونشْر الرّسالة، وهداية الأمّة.. قال عليه السلام:

«حاوَلَ القوْم إطْفاء نور الله من مصباحه، وسدَّ فوّاره[72] منْ ينبوعه، وجَدَحوا[73] بيني وبينهم شِرْباً وَبيئاً، فإنْ تَرْتَفع عنّا وعنْهم مِحَن البَلْوى، أَحْمِلُهم مِنَ الحقّ على مَحْضه، وإنْ تكن الأُخْري، (فلا تَذْهَبْ نَفْسك عليهم حسرات إنّ الله عليمٌ بما يَصْنعون)»[74].

ففي النّهاية: إنّ النّبيّ ﷺ أو الإمام عليه السلام إنّما يَعْمل لِما فيه مصلحة النّاس، ومنفعتهم، وسعادتهم، فإنْ أطاعوهما وعملوا بإرشاداتهما، فذاك هو الحقّ المحض، والخير المحض؛ وإنْ عصوْا وتولّوْا، فإنّ الله عليمٌ بصُنْعهم، وإنّهم لا

يَسْتحقّون أنْ تذهب الأنفس عليهم حسرات.

ومع ذلك، فنحن نجد الأنبياء العظامعليهم السلام يتحمّلون من الأذى من قوْمهم وعشيرتهم ما لا يتحمّله غيرهم، ويتعرّضون للسّخْرية والاستهزاء والتكذيب تارةً، والأذى الجسديّ والنّفْسيّ تارةً أُخْرى، وهذا رسول الله الأعظمصلى الله عليه وآله يقول: «**ما أُوذِيَ نبيٌّ مثْل ما أُوذيتُ**»(٧٥). وعلى الرّغْم من ذلك كلّه، فإنّه تجدهصلى الله عليه وآله يُؤَدّي واجبه على أكْمل وأحْسَن ما يكون، ولا تجد له مظْهراً واحداً صغيراً من مظاهر اليأس والقنوط وفقْدان الأمل؛ بل هو دائماً يتحرّى أفضل الوسائل والسّبل لتحقيق الهداية، تارةً باللّين، وأُخْرى بالحزْم، تحذيراً ووعيداً تارةً، وبشارةً وترغيباً أُخْرى، حرْصاً على نجاتهم، وإنْ لمْ يحرصوا هم على أنفسهم، واهتماماً بسعادتهم، وإنْ هم راوغوا وأضلّوا سبيلها، كما يقول أمير المؤمنينعليه السلام:

«**وأشهد أنّ محمّداً عَبْده ورسوله، أَرْسَلَه بالدّين المشهور، والعَلَم المأثور، والكتاب المسطور، والنّور السّاطع، والضّياء اللاّمع، والأمر الصّادع**(٧٦)**، إزاحةً للشّبهات، واحتجاجاً بالبيّنات، وتحذيراً بالآيات، وتخويفاً بالمثلات**»(٧٧).

ولعلّ في تعبيره بـ (العلم المأثور)، إشارةً إلى أمريْن:

أوّلهما: أنّ هذا الدّين مُقَدَّمٌ بمنْهجه وبخطّه الإلهيّ في الإبلاغ والإرشاد والهداية على سائر المناهج والأساليب التربويّة، فهو عَلَمٌ منصوبٌ، ورايةٌ للحقّ، فيكون مقدَّماً أمام المناهج الحقّة، بل وحتّى أمام الأديان السّماويّة الباقية، كما تُقَدَّم الرّاية في الحرْب على الجنود، وتُبْذَل دونها النّفوس، في سبيل أنْ تبقى خفّاقةً ومرفرفة.

والثاني: أنّ تعاليم هذا الدّين، تسير على وفْق منْهجٍ عرفتْه البشريّة، وألفتْه في الأديان السّابقة، قبل وقوع التحريف فيها؛ لأنّها تكاليف تُراعي حال الفطْرة الإنسانيّة، التي لا تبديل فيها ولا تحويل.

ب) إخراج النّاس من النّور إلى الظّلمات

فمهمّته ﷺ لا تَنْحصر بالبلاغ وإخبار النّاس بالأديان وتعاليمها، ولا بإيصال الأحكام إليهم، بل تتمثّل ـ أيضاً ـ بإخراجهم فعْلاً من ظلمات الضّلالة إلى نور الهداية، وبمرافقتهم والحرْص على سلامتهم على طول الطّريق، طريق عودة الإنسان إلى ربّه، فإنّه طريق ذات الشّوْكة، المحفوف بالمخاطر، والمليء بالحفر والمزالق، فالنّبيّ ﷺ، لشدّة رحمته بالأمّة، لا تنحصر مهمّته بإراءتهم الطّريق، بل يَسْعى أيضاً إلى تجنيبهم مخاطر هذه الطّريق ومزالقه..

قال عليٌّ عليه السلام:

«**اجْعَلْ شرائف صلواتك، ونَوامي[٧٨] بركاتك، على محمّدٍ عَبْدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفاتح لما انْغَلق، والمُعْلن الحقَّ بالحقّ، والدّافع جَيْشات[٧٩] الأباطيل، والدّامغ[٨٠] صَوْلات[٨١] الأضاليل، كما حُمِّل فاضْطَلع[٨٢]، قائماً بأمْرك، مُسْتَوْفزاً[٨٣] في مرضاتك غير ناكل[٨٤] عن قُدُم، ولا واهٍ[٨٥] في عزْم، واعياً لوحْيك، حافظاً لعهْدك، ماضياً على نفاذ أمرك، حتى أَوْري قبس[٨٦] القابس[٨٧]، وأضاء الطّريق للخابط[٨٨]، وهُدِيَتْ به القلوب بعد خَوْضات[٨٩] الفتن والآثام، وأقامَ مُوضحات الأعلام، ونيّرات الأحكام، فهو أمينك المأمون، وخازن علْمك المخزون، وشهيدك يوم الدّين، وبعيثك بالحق، ورسولك إلى الخَلْق**»[٩٠].

فالنّبيّ ﷺ هو الفاتح لِما انْغلق من سبل الله تعالى بعد ضياع الشّرائع الإلهيّة أو تحريفها، وذلك من خلال رسالته والشّرْع الذي جاء به.

وهو ﷺ قد أظْهر دين الله تعالى، الدّين الحقّ، بالوسائل الحقّة والشّريفة، من المُعْجزات، إلى المناظرات، ودفْع الشّبهات، ودرء الفتن، وبيان الحقائق الإلهيّة، والأصول الدّينيّة، إلى قتال أعداء الدّين، إلى غير ذلك..

وهو الدّامغ لصوْلات الأضاليل، والمُهْلك لجُنْد الضّلال بالكلّيّة، وقد كان ﷺ ماضي العزْم في القيام بأمْره تعالى، غير وانٍ ولا مقصّرٍ فيه، مضيئاً

الطّريق لكلّ خابطٍ وجاهل.

ج) الشّهادة على النّاس

وهو ما أشار إليه عليه السلام بقوْله:

«وشهيدك يوْم الدّين وبعيثك بالحقّ»[٩١].

أي: فهو صلى الله عليه وآله شاهدٌ على النّاس من أمّته يوم القيامة، شاهدٌ عليهم بما علم منهم من خيرٍ وشرّ، ولا يكون الشّاهد شاهداً حقيقةً إلاّ إذا كان مطّلعاً على الأفعال، عالماً بالوقائع، ملمّاً بالأحداث الجارية، فالجاهل لا تكون شهادته إلاّ شهادةً بالزّور، وشهادةً غير حقيقيّة.

وهذا المعنى لا يصحّ أنْ يُنْسَب إلى المؤمن العاديّ، فكيف إذنْ بأعظم نفْسٍ وأقْدس مخلوق صلى الله عليه وآله؛ وعليه: فإثبات الشّهادة له صلى الله عليه وآله، يَعْني: أنّه مطّلعٌ على أفعال أمّته، وما تقترفه أيدي النّاس، من خيرٍ أو شرٍّ إلى يوْم القيامة، فيكون هو شاهداً عليهم..

وهذا ليس بعجيبٍ ولا بعيد، فإنّ نفْسه القُدْسيّة المباركة صلى الله عليه وآله، لئنْ كانتْ مطّلعةً على كثيرٍ من الأمور الغيبيّة، وهو لا زال في سجْن هذه الحياة الدّنْيا، فكيف بها إذنْ، وقد تحرّرتْ من قيود الجسد وأسْره، وحلّقتْ في فضائها الملكوتيّ، الذي عُبّر عنه في القرآن الكريم بقوْله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[٩٢].

وفي كوْنه صلى الله عليه وآله شاهداً فوائد تربويّةٌ جمّةٌ، تَنْعكس آثارها على جميع الأمّة، وبتعبير بعض العلماء:

«وأمّا فائدتها، [أي: الشّهادة]، فقد علمْتَ أنّ أكثر أحكام النّاس وهْميّةٌ، والوهْم مُنْكرٌ للإله على الوجْه الذي هو إلهٌ، فبالحريّ أنْ يُنْكر كوْنه عالماً بجُزْئيّات أفعال عباده، ودقائق خطرات أوْهامهم، وظاهرٌ أنّ ذلك الإنكار، يَسْتتْبع عدم المبالاة بفعْل القبيح والانهاك في الأمور الباطلة، التي نهى الله تعالى عنها، فإذا ذُكر لهم أنّ عليهم

شهداء ورقباء وكتّاباً لِما يَفْعلون، مع صدْق كلّ ذلك بأحسن تأويل، كان ذلك ممّا يُعين على كسْر النّفْس الأمّارة بالسّوء، وقهْر الأوهام الكاذبة، ويَرْدع النّفْس عن متابعة الهوى...»[٩٣].

جعلنا الله من المُهْتدين والمقتدين بسيرة نبيّنا محمّدٍﷺ، والمتأسّين بأفعاله وأقواله..

وآخر دعوانا أن الحمْد لله ربّ العالمين...

* * *

الهوامش:

(١) مدينة المعاجز: ١١٦؛ مستدرك البحار: ٧: ١٨١، ١٨٢؛ بحار الأنوار: ٣٩: ٨٤؛ مجموعة الرّسائل: ٢: ١٥٠؛ مختصر بصائر الدّرجات: ١٢٨، مناقب آل أبي طالب: ٣: ٢٦٧؛ مشارق أنوار اليقين: ١١٢؛ المختصر: ١٢٥؛ المحتضر: ١٣٨.

(٢) الأرومة أصل كلّ شجرة، وأصل الحسب: أرومته، والجمع: أروم وأرومات؛ أنظر: كتاب العيْن: ٨: ٢٩٦.

(٣) الصّدْع: الشّقّ في الشيء الصّلْب كالزجاجة والحائط وغيرهما، وجمْعه صدوع. لسان العرب: ٨: ١٩٤.

(٤) عترة الرّجل: أصْله، وأقرباؤه من ولده وولد ولده وبني عمّه دنيّاً، كتاب العيْن: ٢: ٦٦.

(٥) أُسْرة الرّجل: رهْطه، لأنّه يتقوّى بهم. الصّحاح: ٢: ٥٧٩.

(٦) بَسَقَتْ النّخْلة بُسوقاً: طالتْ وكملتْ. كتاب العين: ٥: ٨٥.

(٧) السّراج: الزّاهر الذي يزهر باللّيْل، والفعْل منه: أسْرجْتُ السّراج إسْراجاً. كتاب العيْن: ٦: ٥٣.

(٨) الشّهاب: شُعْلةٌ من نار، والجمْع: الشّهب والشّهْبان، ويُقال للرّجل الماضي في الحرْب: شهابٌ حدب. كتاب العيْن: ٣: ٤٠٣.

(٩) العود الأعلى الذي يُقْدَح به النّار. الصّحاح: ٢: ٤٨١.

(١٠) نهج البلاغة، الخطبة ٩٤، بشرح محمّد عبده: ١: ١٨٥.

(١١) الكهل من الرّجال: مَنْ زاد على ثلاثين سنةً إلى أربعين. مجمع البحريْن: ٤: ٧٩.

(١٢) الشّيمة: الخُلُق. الصّحاح: ٥: ١٩٦٤.

(١٣) الدّيمة: المطر الذي يدوم دوْماً يوْما وليلةً أو أكثر. كتاب العين: ٨: ٨٦.

(١٤) الخطبة ١٠٥، نهج البلاغة، محمّد عبده: ١: ٢٠٠.

(١٥) الخطبة ١٩٢، نهج البلاغة، محمّد عبده: ٢: ١٥٧.

(١٦) الخطبة ٩٤، نهج البلاغة، محمّد عبده: ١: ١٨٥.

(١٧) الرّياش: اللّباس الحَسَن. كتاب العيْن: ٦: ٢٨٣.

(١٨) زوى الشيء يزويه زيّاً وزوياً، نحّاه، فانزوى. الصّحاح: ٦: ٢٣٦٩.

(١٩) الخطبة ١٦٠، نهج البلاغة، محمّد عبده: ٢: ٥٩، ٦٠.

(٢٠) المصدر السّابق.

(٢١) الحكمة: ٩، نهج البلاغة، محمّد عبده: ٤: ٦١.

(٢٢) المعجزة: علامة الله لا يعْطيها إلاّ أنبياءه ورسله وحججه ليُعْرف به صدْق الصّادق من كذب الكاذب. علل الشّرائع: ١: ١٢٢.

(٢٣) صعد النّبيّ ﷺ في أوّل بعْثته الصّفا، وقال: يا صباحاه، فاجْتمعتْ إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ قال: أرأيتكم إنْ أخبرْتكمْ أنّ العدوّ مُصْبحكمْ أو مُمْسيكمْ، ما كنْتُمْ تصدّقونني؟ قالوا: بلى، قال: فإنّي نذيرٌ لكمْ بين يدي عذابٌ شديد. مناقب آل أبي طالب: ١: ٤٣، مُسْند أحمد: ١: ٢٨١، صحيح البخاريّ: ٦: ٩٥، السّنن الكُبْرى: ٦: ٢٤٤.

(٢٤) الخطبة: ١٩٠، نهج البلاغة، محمّد عبده: ٢: ١٣٠.

(٢٥) الهمل: السُّدى، وما ترك الله النّاس هملاً، أي: سُدىً بلا ثواب وبلا عقاب، وإبل هوامل: مُسَيَّبة لا تُرْعى، وأمْرٌ مُهْمل: أي: متروك. كتاب العيْن: ٤: ٥٦.

(٢٦) الخطبة: ١، نهج البلاغة، محمّد عبده: ١: ٢٥.

(٢٧) الخطبة: ١٨، نهج البلاغة، محمّد عبده: ١: ٥٥.

(٢٨) عيون أخبار الرّضا: ١: ٩٣، أمالي الطّوسيّ: ٥٨٠.

(٢٩) النّحْل: ٩٠.

(٣٠) البداية والنّهاية: ٣: ٧٨.

(٣١) الخطبة: ١١٠، نهج البلاغة، محمّد عبده: ١: ٢١٥.

(٣٢) فضائل الصّحابة: ١٥، مُسْند أحمد: ٣: ١٧، سنن الترمذيّ: ٥: ٣٢٩، مجمع الزّوائد: ٩: ١٣٤.

(٣٣) عيّ عن حجّته عيّاً، وعييتُ بهذا الأمر وعنه، إذا لمْ أهْتـدِ لوجْهـه، وأعيـاني الأمـر أنْ أضْـبطه، والدّاء العياء: الذي لا دواء له. كتاب العيْن: ٢: ٢٧٢.

(٣٤) الرّكْن: ناحيةٌ قويّةٌ من جبلٍ أو دار، والجمْع: أركان. كتاب العيْن: ٥: ٣٥٤.

(٣٥) الخطبة: ١٣٣، نهج البلاغة، محمّد عبده: ٢: ١٦.

(٣٦) الملأ: الجماعة. ترتيب إصلاح المنطق: ٣٤٠.

(٣٧) الفيْء: الرّجوع، سُمّي هذا المال فيْئاً، لأنّه رجع إلى المُسْلمين من أموال الكفّار عفْواً بـلا قتـال، وكذلك قوله تعالى في قتال أهل البَغْي: (حتّى تفيء إلى أمْر الله)، أي: ترجع إلى الطّاعـة. لسان العرب: ١: ١٢٧.

(٣٨) القليب: البئر قبْل أنْ تُطْوى. كتاب العيْن: ٥: ١٧١، وقد عنى ﷺ قليب بدْر.

(٣٩) المنكب: مجمع عظم العضد والكتف، وحبْل العاتق من الإنسان والطّائر ونحْوه. كتاب العـيْن: ٥: ٣٨٥.

(٤٠) العتوّ: المبالغة في المكروه، فهو دون الطّغْيان. الفروق اللُّغويّة: ٣٣٧.

(٤١) الخطبة: ١٩٢، نهج البلاغة، محمّد عبده: ٢: ١٥٨.

(٤٢) روتْ عائشة، قالتْ: لمّا أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أنْ يُطْرَحوا في القليـب، طُرِحـوا فيـه، إلاّ مـا كان من أميّة بن خلف، فإنّه انتفخ في درْعه حتّى ملأها، فذهبوا ليُحَرّكوه، فتزايل، فأقرّوه وألْقوا عليه ما غيّبه من التراب والحجارة، فلمّا ألْقاهم في القليب، وقف رسـول الله ﷺ فقـال: يـا أهـل القليب: هل وجدْتمْ ما وَعَدكمْ ربّكم حقّاً؟ فإنّي وجدْتُ ما وَعَدني ربّي حقّاً، فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتُكَلّم قوْماً موْتى؟ قال: لقد علِموا أنّ ما وعدْتُهم حقٌّ. تاريخ الطّبريّ: ٢: ١٥٥.

(٤٣) كان من حديث الخندق أنّ نفراً من اليهود، منهم: سـلام بـن أبي الحقيـق النّـضري وحيـيّ بـن أخطب النّضريّ وكنانة بن الرّبيع بن أبي الحقيق النّضريّ وهوذة بن قيْس الوائليّ وأبو عمّار الوائليّ في نفرٍ من بني النّضير ونفرٍ من بني وائل، هم الذين حزّبوا الأحـزاب عـلى رسـول الله صـلّى الله عليه وسلّم، خَرَجوا حتى قَدِموا على قُرَيْش بمكة فدعَوْهم إلى حَرْب رسـول الله صـلّى الله عليـه وسلّم، وقالوا: إنّا سنكون معكُمْ عليه حتّى نَسْتأصله، فقالَتْ لهُمْ قريش: يا مَعْـشر يهـود، إنّكـم أهل الكتاب الأوّل والعلْم بما أصبحْنا نَخْتلف فيه نَحْن ومحمّد، أَفَدِينُنا خَيْرٌ أمْ دِينـه؟ قـالوا: بـل دينُكم خَيْرٌ مِنْ دينه، وأنْتم أَوْلى بالحقّ منه؛ قال: فَهُم الذين أنْزَلَ الله عزّ وجـلّ فـيهم: (ألم تَـرَ إلى الذين أُوتُوا نصيباً من الكتاب يُؤْمنون بالجِبْت والطّاغوت ويقولون للّذين كفروا هـؤلاء أهْـدَى مِنَ الذين آمنوا سبيلاً) إلى قوله (وكفى بجهنّم سعيراً)، فلمّا قالوا ذلك لقُـرَيْش سَرَّهُـمْ مـا قـالوا

ونَشِطوا لِمَا دَعوهم إليه مِنْ حَرْب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأَجْمَعوا لذلك واستَعَدّوا لـه، ثمّ خَرَجَ أُولئك النّفَر مِنْ يهود حتى جاؤوا غَطْفان مِنْ قَيْس عيلان، فدَعوهم إلى حَـرْب رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأَخْبروهم أنّهم سيكونون معهم عليه، وأنّ قُرَيْشاً تابعوهم على ذلـك، وأجْمعوا فيه، فأجابوهم، فخَرَجَتْ قريش، وقائدها أبو سفيان بـن حـرْب، وخرجَـتْ غَطفـان، وقائدها عُيَيْنة بن حصيْن بن حُذَيْفة بن بدر في بني فزارة، والحارث بن عَوْف بن أبي حارثة المريّ في بني مُرّة، ومسعود ابن رُخَيْلة بن نويْرة بن طريف بن سحمة بن عبد الله بن هلال بـن خـلاوة بن أشجع ابن ريث بن غطفان فيمَنْ تابعه مِنْ قَوْمه مِنْ أَشْجَع، فلمّا سَمِع بهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبما أَجْمَعوا له من الأمر، ضَرَبَ الخندق على المدينة. تاريخ الطّبريّ: ٢: ٢٣٣.

(٤٤) اللّوامـع الإلهيّـة في المباحـث الكلاميّـة: ٢٣١ ـ ٢٤٠، والفـصْل في الملـل: ١: ٢٠٥، أنـوار الملكوت: ١٩٧، ١٩٨، الذخيرة: ٣٥٧، ٣٥٨.

(٤٥) الفتر: مقدار ما بين طرف الإبهام وطرف المشيرة، وفترت الـشيء فـتراً بفـتْري، وشـبرْته شـبْراً بشبْري، والفترة ما بين كلّ رسولٍ إلى رسول. كتاب العيْن: ٨: ١١٤.

(٤٦) الهجع والهجعة والهجيع: طائفةٌ من اللّيْل، والهُجوع: النّوم ليلاً. النّهاية في غريب الحـديث: ٥: ٢٤٧.

(٤٧) الاعتزام: لزوم القصْد في الحضر والمشي وغير ذلك. كتاب العيْن: ١: ٣٦٤.

(٤٨) الانتشار: الانتفاخ في عصب الدّابّة، وقد يكون ذلك من التعب. الصّحاح: ٢: ٨٢٩.

(٤٩) الإلْظاظ: لزوم الشيء والمثابرة عليه، ويُقال: الإلْظاظ: الإلحاح، قال بشْر: ألَـظَّ بهـنّ يَحْـدوهنّ حتّى، تبيّنت الحيال من الوساق؛ ومنه الملاظّة في الحرب، يُقال: رجلٌ ملظٌّ، أي: مُلحٌّ، وملْظاظ، أي: ملْحاح. الصّحاح: ٣: ١١٧٩.

(٥٠) كسف القمر يكْسف كسوفاً، والشّمْس تكسف كذلك، وانكسف خطأٌ. ورجلٌ كاسف الوجْه: عابسٌ من سوء الحال، كسف في وجْهي وعبس كسوفاً. كتاب العيْن: ٥: ٣١٤.

(٥١) الغرر كالخطر، وغرر بماله: أيّ: حَمَله على الخطر. كتاب العيْن: ٤: ٣٤٦.

(٥٢) الرّدى: الهلاك. لسان العرب: ١٤: ٣١٦.

(٥٣) تجهّمه وتجهّم له كـ جهمه، إذا استقبله بوجْهٍ كريهٍ. لسان العرب: ١٢: ١١١.

(٥٤) الدّثار: كلّ ما كان من الثياب فوق الشّعار، وقـد تـدثّر، أي: تلفّـف في الـدّثار. الـصّحاح: ٢: ٦٥٥.

(٥٥) الخطبة: ٨٩، نهج البلاغة، محمّد عبده: ١: ١٥٦.

(٥٦) الخطبة: ١، نهج البلاغة، محمّد عبده: ١: ٢٤.

(٥٧) انجذم بالعير: أي: انقطع بها. لسان العرب: ١٢: ٨٨.

(٥٨) السّواري: جمْع سارية، وهي الأسطوانة. النّهاية في غريب الحديث: ٢: ٣٦٥.

(٥٩) النّجْر: عمل النّجّار ونحْته. كتاب العيْن: ٦: ١٠٦.

(٦٠) الخطبة: ٢، نهج البلاغة، محمّد عبده: ١: ٢٧.

(٦١) الخطبة: ٨٩، نهج البلاغة، محمّد عبده: ١: ١٥٦.

(٦٢) الجمعة: ٢.

(٦٣) المائدة: ٩٩.

(٦٤) الصّدْع: شقٌّ في شيءٍ له صلابة. كتاب العيْن: ١: ٢٩١.

(٦٥) الفتق: انفتاق رتق كلّ شيءٍ متّصل مُسْتوٍ وهو رتْقٌ، فإذا انفصل، فهو فتْقٌ. كتاب العيْن: ٥: ١٣٠.

(٦٦) الوغر: اجتراع الغيْظ، وَغَر صدْري عليه، يوغر، وهو أنْ يَحترق القلْب من شدّة الغيْظ. كتاب العيْن: ٤: ٤٤٤.

(٦٧) الضّغْن والضّغينة: الحقْد، ضغن عليه، أي: حَقَد، وسللْتُ ضغينته وضغنه، أي: طلبْتُ مرْضاته، قال: وأحمل في ليلي لقوْمٍ ضغينةً. كتاب العيْن: ٤: ٣٦٦.

(٦٨) القادحة: الدّودة التي تأكل السّنّ والشّجر، تقول: قد أسرعتْ في أسنانه القوادح. تاج العروس: ٢: ٢٠٣.

(٦٩) الخطبة: ٢٣١، نهج البلاغة، محمّد عبده: ٢: ٢٢٥.

(٧٠) الخطبة: ١١٦، نهج البلاغة، محمّد عبده: ١: ٢٢٩.

(٧١) فاطر: ٨.

(٧٢) الفوّارة: العيْن تجيش وتَفور بمائها. كتاب العيْن: ٨: ٢٧٩.

(٧٣) الجَدْح: خوْض السّويق واللّبن ونحْوه بالمِجْدح ليَخْتلط. كتاب العيْن: ٣: ٧٣.

(٧٤) الخطبة: ١٦٢، نهج البلاغة، محمّد عبده: ٢: ٦٤.

(٧٥) مناقب آل أبي طالب: ٣: ٤٢.

(٧٦) الصّادع: القاضي بين القوْم. تاج العروس: ٥: ٤١١.

(٧٧) الخطبة: ٢، نهج البلاغة، محمّد عبده: ١: ٢٨.

(٧٨) النّوامي: الأغصان، واحدتها نامية. لسان العرب: ١٥: ١٣٠.

(٧٩) جيشات: مأخوذٌ من: جاش الشيء، إذا ارتفع، وجاش الماء، إذا طما، وجاشت النّفْس. غريب الحديث: ١: ٣٧٥.

(٨٠) الدّامغ: المُهْلك، من دَمَغه دمْغاً، أي: شجّه بحيث يَبْلغ الدّماغ فيُهْلكه. مجمع البحريْن: ٢: ٥٥.

(٨١) صال عليه، إذا استطال، وصال عليه: وثب صوْلاً وصوْلةً، يُقال: رُبَّ قوْلٍ أشدّ من صوْل. الصّحاح: ٥: ١٧٤٦.

(٨٢) اضطلع بالحمْل والأمر، احتملتْه أضلاعه. لسان العرب: ٨: ٢٢٥.

(٨٣) استوفز في قعْدته، إذا قعد قعوداً مُنْتصباً غير مطْمئنّ. الصّحاح: ٣: ٩٠١.

(٨٤) النّكْل: ضرْبٌ من اللّجْم والقيود. كتاب العيْن: ٥: ٣١٧.

(٨٥) وهى الشيء والسّقاء ووهي يهي فيهما جميعاً وهْياً، فهو واهٍ: ضَعُف. لسان العرب: ١٥: ٤١٧.

(٨٦) القبس: شُعْلةٌ من نارٍ تَقْبسها وتقْتبسها، أي: تأخذ من مُعْظَم النّار. كتاب العيْن: ٥: ٨٦.

(٨٧) القابس: طالب النّار، وهو فاعلٌ من قَبَس. النّهاية في غريب الحديث: ٤: ٤.

(٨٨) الخابط: النّائم. لسان العرب: ٧: ٤٠١.

(٨٩) خُضْتُ الماء خوْضاً وخياضاً، واختضْتُ، وخوضْتُ تخْويضاً، أي: مشيْتُ فيه. كتاب العين: ٤: ٢٨٢.

(٩٠) الخطبة: ٧٢، نهج البلاغة، محمّد عبده: ١: ١٢٠.

(٩١) الخطبة: ٧٢، نهج البلاغة، محمّد عبده: ١: ٢٠٤.

(٩٢) النّجْم: ٨، ٩.

(٩٣) رياض السّالكين: ١: ٤٥١. (في الهامش).

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی